الأسرة العربية في الأدب العربى:

العصر الجاهلى ، العصر العباسى

عرض و تحليل

د. قطب عبد العزيز بسيونى

كلية اللغات و الترجمة

جامعة مصر للعلوم و التكنولوجيا

غنيم ، محمد عبد القادر.

الأسرة العربية فى الأدب العربى : العصر الجاهلى، العصر العباسى / محمد عبد القادر غنيم .- ط ١ .- [د.م : د.ن] ، ٢٠٠٥.

١١٥ ص

تنطلق هذه الدراسة من مظاهر اجتماعية بدأت في الانتشار في الآونة الأخيرة في الوطن العربى وهى ظاهرة التفسخ الأسرى، وتصدع الأسرة، حيث امتلأت المحاكم بالمتخاصمين، وطالبى الطلاق، وتشرد الأطفال في الشوارع بسبب الخلافات الأسرية، و التزاعات العائلية. وتدنت ظاهرة احترام الأكبر سنا، واتجه الشباب إلى مجاراة العادات المبتذلة الوافدة عن طريق وسائل الإعلام، والترويج للقيم الهابطة بحجة الحرية الشخصية، وانفلات المعايير الأخلاقية والدينية تحت مسميات حقوق الإنسان، وحرية التعبير و المساواة في حقوق المرأة. وحار الناس بين قيم دينية تحض على مكارم الأخلاق، وقيم وافدة براقة ظاهرها الرحمة و في باطنها الهلاك الدمار للشخصية العربية بصفة خاصة و المسلمة بصفة عامة.

يقول الباحث في معرض تناوله لهذه المشكلة: "عز عليَّ ما يجرى في هذا الزمان الرديء الغابر، وما آل إليه حال أفراد بعض الأسر، وما تواجهه من التباعد و التنافر، وخشيتى أن تنخر هذه السوسة في جسد الأسرة وأفرادها، فتقضى على ما تبقى من تماسكها و ترابطها مستقبلا.

ويؤول حالها كما آلت إليه حال الأسرة في الأمم الأوروبية والغربية، ويصبح الأب و الأم لا يملك أحدهما حق ردع الابن أو الابنة. كما لا يستطع الزوج أن يعيد الزوجة إلى طريق الصواب، والأخ لا يقدر على توجيه النصح و الإرشاد لأخيه. فيكون السقوط إلى الهاوية نهاية المطاف. لذلك أردت إلقاء نقطة ضوء أمام أفراد أسرنا لتبصيرهم بحال أسرنا في العصور السابقة وما كانت عليها" ص ١٤.

ثم يبين الكاتب غرضه في اختيار مصدر لتصوير القيم الأسرية في الماضي، فيذكر أنه اختار من نصوص الشعر المتواترة في العصر الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي ماحسبه يؤدى الغرض من وضع هذه الصفحات "لدعوة راعى الأسرة الحالية في عصرنا هذا وأفرادها للتكافل والتضامن، والعودة إلى التمسك بالأصول والعادات الأصيلة، ومكارم الأخلاق التي تفرض رحمة الكبير بالصغير، واحترام الصغير للكبير، وفقاً للسنة التي سنتها العقيدة الإيمانية والشريعة الإسلامية" ص١٥.

لماذا الأسرة ؟

للأسرة المتماسكة، المترابطة، المتراحمة، أثر بالغ في حياة أبنائها الذين يجدون في أحضانها الحماية والأمان والطمأنينة. ويستمدون من الانتماء إليها الثقة بالنفس والشعور بالقوة والعزم. كما أن الأسرة تشحن أفرادها بطاقة هائلة من الشجاعة و الجرأة والإقدام، و تكسبهم احترام الناس و تقدير الأسر الأخرى من حولهم بتصرفهم الأخلاقي القائم على المكارم والمروءة.

فبالقدر الذي يكون أفراد الأسرة الكبيرة متماسكين، مترابطين، متعاضدين، يكون قدر ما يكنه الناس لهم من الحب و نظرة الاحترام والتقدير، أو الكره والاحتقار والازدراء.

قال الشاعر:

و إذا رزِقْتَ من النوَّافِلِ ثروة

فَامْنَحْ عَشِيرَتَكَ الأدْنى قَيضها

واعْلَمْ بِأَنَّكَ لن تَسوَّدَ فهموُ

حتى ترى دمثَ الخلائق سَهْلها

لقد حفظت لنا كتب الأدب العربي شعرا و نثرا لكثير من هذه الأخبار التي عكست مجمل الحياة الأسرية، و ما كانت عليه الأسرة العربية. إذ كان لها أثر في المجتمع العربي آنذاك في تدعيم أواصر القربى والصلات الاجتماعية. فالأثر الموروث ذو قيم وعادات مما جعل الإنسان العربى المسلم في هذا العصر أن يفتخر بها ويعتز، حيث ظلت سائدة إلى وقت قريب. وهي المدد والعون والقدوة والعبرة والعظة ومواصلة التعاطف والتواد في عصرنا الحاضر، الذى يتعرض فيه مجتمعنا للغزو الغربى الهادف إلى تفكيك ترابط وخلخلة قيمنا الأخلاقية.

لقد تغنى الشعراء بأفراد من الأبناء الذين بنوا مجدا لأسرهم وقبائلهم، وبالتالى اكسبوها مجدا وحمدا وسؤددا وشرفا لم يكن موجودا قبلهم. وأعظم مثل لذلك هو سيدنا محمد (ص) الذى يقول فيه الشاعر "ابن الرومى":

يَسْمُو الرِّجَالُ بآباءِ وأونة

يَسْمُو الرِّجَالُ بأبناء و تَزْدَانُ

و كم أب قَدْ عَلا بابْنِ ذوى شَرَف

كما عَلَتْ بِرَسُول الله عَدْنَانُ

وهذا "زهير بن أبي سلمى " الشاعر الجاهلي

الكبير، يؤكد أن الأبن الذي ينال شرفا ويؤسس مجدا لقبيلته وأسرته، إنما يكون مؤهلا لذلك بشئ من نواة وصفات آبائه. هى التي تعينه وتدفعه للإقدام وتحقيق السيادة، وممارسة القيادة، حيث يعبر في هذا السياق عن رأيه مدعما إياه بالحجة والبرهان.

يقول "زهير":

ومَا يَفْعَلوا من فعل صدْق

فَإِنَّمَا تَوَارَثَه آبَاءُ آبَائِهم قَبلُ

وهل يَنْبتُ الخُطِّيُّ إلا وشيجَه

وتغْرَسُ إلا في منابِتَها النخل

وكما أن هناك أبناء قد أحسنوا إلى أنفسهم وأسرهم وقبائلهم، فإن هناك أبناء قد أساءوا إلى أسرهم وقبائلهم. فما كان ذلك بإرادتهم المطلقة، بل كانت هناك ظروف وأسباب اجتماعية أرغمتهم على موقف الإساءة. وإنصافا للأبناء الذين أساءوا لأسرهم ولقبائلهم، وتم طردهم من أسرهم أو خلعهم من قبائلهم، فيمكن تصنيفهم إلى ثلاثة أصناف:

- **الفئة الأولى "الخلعاء":**

وهم الذين تم طردهم وخلعهم من أسرهم وقبائلهم اتقاءً لشرهم وكثرة جرائرهم عليها وسوء أفعالهم؛ التي كثيرا ما تسبب للأسرة والقبيلة الحرج، وتعرضها لغضب وانتقام الأسر والقبائل الأخرى. لذلك سرعان ما تضحى الأسرة أو القبيلة بهذا الفرد سيء التصرف في سبيل إنقاذ سمعة جميع أفراد القبيلة، ورفع الحرج عنهم طلبا للسلامة والحماية، وتقديم المصلحة الجماعية على المصلحة الفردية.

ومن هؤلاء الخلعاء: "حاجز الأزدى، وقيس بن الحدادية، وأبى الطحان القيسى، وغيرهم كثير" طردوا من الإقامة مع أسرهم وأصبحوا بلا حماية قبلية أو أسرية، مما اضطر بعضهم إلى الاتجاه إلى احدى القبائل يدخلون في جوارها، ويعيشون في أطرافها وعلى هامشها. وفي هذه الحالة يتجرعون كؤوس الذل والمهانة التي يلاقونها في معاملات حياتهم اليومية، أو أن ينضم أحدهم إلى مجموعات قاطعى الطرق و السلب والنهب التي كانت منتشرة. وجلهم من الخلعاء المطرودين أمثالهم، المتشردين في كافة طرق المواصلات يتعرضون للتجار والحجاج وغيرهم من المسافرين بسلبهم أو الإغارة على القبائل لتأمين متطلبات حياتهم.

إن في هذه الإجراءات من الخلع والطرد، تكون قصاصا للحد من طيش وسوء سلوك الأبناء، وتطبيق مثل هذه العقوبة فيها من دوافع الردع وكبح الجماح وتقويم السلوك ما يجعل الأفراد يحسبون ألف حساب قبل الإقدام على أى عمل فيه إساءة أو اعتداء على الآخرين.

- **الفئة الثانية "أغربة العرب":**

وينتمى أفراد هذه المجموعة إلى أبناء أسر وقبائل أصلية، ولكنهم انحدروا من أمهات حبشيات، فخرجوا إلى الدنيا بلون أسود، مع أن أبنائهم ينتمون إلى أسر وقبائل معروفة ومشهورة.

فنبذهم أباؤهم ولم يعترفوا بأبوتهم اتقاءً للعار الذي يلحق بهم لسواد بشرة أبنائهم. وقد أطلقوا عليهم "أغربة العرب" نسبة لسواد لون الغراب. ويأتى على رأس هؤلاء الأغربة الشاعر والفارس والبطل المشهور "عنتر بن شداد العبسى". لكن الظروف ساعدته بانتزاع اعتراف أبوته من أبيه " شدّاد " في وقت كانت القبيلة تتعرض للغزو، و الحاجة ماسة لشجاعته وفروسيته، فقال له والده "شداد" قولته المشهورة: "كر وأنت حُرّ". وكان عمه قد رفض تزويجه ابنته "عبلة" لسواده وعدم الاعتراف ببنوته رغم أنهما قد تبادلا الحب بينهما، ومما قاله "عنترة" في " عبلة " ابنة عمه:

ولقَدْ ذكَرْتُكِ والّرماحُ نَوَاهلٌ
منّي وبيضُ الهند تقْطُرُ من دَمِي
فوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لأنَّها
لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغْرُكِ المُتَبَسِّمِ

ومن هؤلاء الأغربة الذين عدوا عاراً على آبائهم، فنقموا على قبائلهم وآبائهم لنبذهم إياهم، لأسباب لم يقترفوها وليس لهم فيها يد، بل أنهم يحملون آبائهم مسئولية ما جنوا عليهم و أنجبوهم من حبشيات سود. فهاموا على وجوههم، يحملون في نفوسهم وقلوبهم الحقد والكراهية والغمة على المجتمع الذي ظلمهم ولم ينصفهم. لكنهم ظلوا يحملون في دواخل نفوسهم نبلاً وشهامة وكرامة، وسمو أخلاق موروثة عن هذه الأسر العريقة التي ينتمون إليها. واكتسبوا الشجاعة والفروسية والمروءة والخبرة من المعاناة ومكابدة الحياة. فكانوا فعلاً يعترضون القبائل والقوافل التجارية، فينهبون ويسلبون ويغزون القبائل، ولكن ليس لمجرد العبث أو اللؤم أو سوء الخلق، أو حباً في السلب وإيذاء للناس، فقد كانوا يوزعون ما يكسبونه بكل فخر واعتزاز وكرامة على الفقراء والأسر في قبائلهم والقبائل الأخرى، وربما يوزعون كل ما امتلكوا من الأموال وباتوا هم على الجوع. ويرددون قول الشاعر العربى حين ينعى على قومه ظلمهم له بنسيانهم إياه، وبذلك خسروا فتى شجاعاً و فارساً مقدماً.

أضَاعُونى و أىَّ فتىً أضَاعُوا
ليومِ كَرِيهَةٍ و سَدَادِ ثَغْرِ

ومن أشهر الأغربة " تأبط شراً " وهذا لقبه أما اسمه أما الصريح فهو " ثابت بن جابر بن سفيان " من " قيس عيلان " وأمه حبشية و اسمها " أميمة "، تزوجت فيما بعد " أبا خراس الهذلي" الصعلوك المشهور، فأخذ عنه " تأبط شراً " الكثير من شجاعته وفروسيته والطباع النبيلة والصفات الحميدة. ومنهم أيضا "الشنفرى" وهذا لقبه لغلظ شفتيه ولسواده المتحدد من أمه الحبشية. فهو من قبيلة " الأزد اليمنية" و هو ابن اخت "تأبط شراً". و منه كذلك "عمرو بن براق" وكان زميلا ورفيقا "لتأبط شراً".

• الفئة الثالثة "الصعاليك":

و"الصعاليك" لقب أطلق على فئة من فرسان العرب، تخصصوا في غزو أصحاب الأموال من التجار وسلبها وتوزيعها على الفقراء والمحتاجين، نبلا منهم ورحمة بهؤلاء الناس. ومن هؤلاء

الصعاليك الذين اتخذوا الصعلكة حرفة وطريقا وأسلوبا لإعلان نقمتهم على مجتمعاتهم وقبائلهم وأسرهم لظلمهم إياهم "عروة بين الورد العبسي" الذي حقد على أبيه لسوء اختيار أمه، فشعر بالعار لوضاعة أخواله ونسبه من جهة أمه، أما أبوه فقد كان فارسا في أسرته و قبيلته، فورث عنه الشجاعة والفروسية وقوة البأس وشدة المراس، فكان "عروة" نبيلا كريما شهما ذا مروءة ونجدة وسمو أخلاق.

◘ مكانة الآباء في الأسرة:

الأب عماد الأسرة وراعيها، يتولى زمام إدارتها ومسؤلية توجيهها وإرشادها، فهو كربان السفينة الماهر الذي يقودها إلى شاطىء السلامة.

الأب يسعى ويكد في طلب الرزق، ويسهر ويعرق من راحة أبنائه ورعايتهم وتوفيرا لعيش الكريم لهم وتأمين مستقبلهم، ويقوم بالتوجيه والإرشاد الذي يصوهم من الانحراف ويحميهم من الوقوع في الخطأ ويدفع عنهم كلما ألم بهم أى ضرر أو حاق بهم أي سوء. وعلى هذه الأسس قامت مكانة الآباء واستحقوا تقدير وتوقير كل أفراد الأسرة .

ونظرة في قول الشاعر، نعلم كم يعانى الأب ويكابد ويتحمل ماديا ومعنويا في سبيل تأمين لقمة العيش لأبنائه خوفا عليهم من الجوع والعرى قائلا:

واللهِ لولا صِبْيَةٌ صِغَارْ

وُجُوهُهُمْ كَأنها أقْمَارْ

لما رآني مَلكٌ جَبَّارْ

بِبابهِ ما طَلَع النَّهارْ

وفي السياق نفسه نسمع خليفة المسلمين معاوية بن أبى سفيان" يقول بإحساس الأب وإشفاقه وحنوه: " لولا يزيد لأبصرتُ رشدي " ويزيد هو ابنه وقد هيأ له ولاية العهد "الورثة" التي قلبت نظام الحكومة العربية وشكلها وخلقت عداءات وأحقاداً ظلت قروناً. ومن بعده "عبد الملك بن مروان" الذي قال: "لقد أضربنا الوليد وكأنه يؤدبنا و لا نؤدبه" والوليد هو ولى العهد الذي تولى الخلافة من بعده.

ونظرة إلى شعر هذا الأب الإعرابي للبنوة، مما يشعر الأبناء بالدفء والحنان:

نشأ بُنيَّ فكَانَ مثْلي

يَلْبَسُ ما قَدْ نزعْتُ عَنِّي

فسَرَّني ما رأيتُ منهُ

وَسَاءَنِي ما رَأَيْتُ منِّي

يسره أن يرى ابنه ينمو ويكبر حتى صار رجلاً مساويا له، ولكن يسوؤه شعوره بالسير نحو الضعف والكهولة، فهو يعلم أن الأيام تمضى وتقود ابنه نحو القوة والاكتمال، ولكن الأيام تضعفه وتقوده إلى حتفه في النهاية. وهذا أب آخر هو "سعيد بن صمصمة" ينشد مرقصاً ابنه:

أُحِبُّ مَيْمُون أشَدَّ حُبِّ

أعْرِفُ منه شَبَهى وَ لُبِّي

وأب آخر ينشد فيقول:

وإنَّا لنرى أقْدامَنا في نِعالِهم

وَأَنْفنا بينَ اللِّحَى و الحواجبِ

مما سبق نعلم أن الأب يواصل العناية والرعاية على أبنائه في جميع مراحل أعمارهم وينفق عليهم، عطفه وحنانه ورحمته ويعطيهم من فيه ومن قلبه ومن نفسه، ويسعى جاهدا ويعمل صامدا مستمرا في عطائه لأبنائه في جميع مراحل حياقم بدءا من مرحلة الطفولة والصبا إلى مرحلة الفتوة والشباب، مرورا بمرحلة الشيخوخة ثم الكهولة.

وصدق رسول الله (ص) إذ يقول: "الأب باب من أبواب الجنة فاحفظ ذلك الباب" ونسمعه يقول لرجل جاء يخبر برغبته في الجهاد، فيسأل (عليه السلام): "أَحَيٌّ أَبُوكَ ؟" فيجيبه: "نعم يا رسول الله". فيقول له: "فيهما فجاهد" أي في الأبوين فجاهد، أي رعايتك لأبويك جهاد في سبيل الله، فتعدل منزلة رعاية الأبوين الجهاد.

وهنا نرى الشاعر الحليم "أمية بن أبي الصلت" وهو المعروف بقصيدته المشهورة التي يودعها مشاعر وأحاسيس كل الآباء في كل الأماكن والأزمان، وهي طويلة أنشأها حينما رأى من والده ما بدا له صدود وعزوف وما يشبه العقوق، فقالها معاتبا إياه. من قصيدة طويلة، يهمنا منها هذه الأبيات، اذ يعدد فيها كده وجوده ورعايته والعناية به والسهر على راحته، يقول:

غَـذَوْتُك مَوْلُوداً وعُلْتُكَ يَافِعاً

تَعلُّ بِمَا أَجْنـي عَلَيْـكَ و تَنْهَلُ

إذا لَيْلَةٌ نابَتْكَ بالشَّكْوِ لم أَبِتْ

لشَكْوَاكَ إلا سَاهِراً أَتَمَلْمَلُ

كَأَنِي أنا المَطْرُوقُ دُونَكَ بالذى

طُرِقْتَ به دونى فَعَيْنِى تَهْمِلُ

إنها أبيات قليلة لكن معانيها ومغازيها كثيرة، يفهمها ويتفاعل معها الآباء الذين يحسون الأحاسيس نفسها لصدقها وتفجرها من واقع المشاعر الأبوية، لأن الآباء يأملون أن يلاقوا المعاملة بدرجة الإحسان نفسها التي عاملوا بها أبنائهم، وأن كون قد أثرت فيهم وخلقت لهم مكانة وتوقيرا في قلوبهم.

وفي مقابل "أُمَيَّة بن أبي الصلت" نرى هذا الابن يفتخر بآبائه مقدراً لهم جهودهم ومعترفاً بما حققوه في حياقم، ويعترف في الوقت نفسه بتقصيره عن مجاراقم وإنجازاقم، فيقول منشداً بصدق الشعور والعاطفة:

وَرِثْنَا المَجْدَ عَنْ آباء صِدْق

أَسَأْنَا في ديارهم الصَّنِيعَ

إذَا الحَسَبُ الرَّفِيعُ تعَاوِرتَهُ

وُلاةُ السُّوء أوشَكَ أنْ يَضيعا

ولقد سمع "عمر بن أبي ربيعة" مرة منشداً، ينشد في حضرته هذا البيت:

كُـنْ ابْنَ من شئْتَ واكْتَسِبْ أَدَبا

يُغنِيكَ مَحْمُودُهُ عن النَّسَبِ

فلم يعجبه المعنى المقصود في هذا البيت، فرد عليه مؤكداً مكانة الأب والأم في توريث الابن الحسب والنسب والذكاء موضع الفخر.

لا فَخرَ إلا فَخَارَ مُنْتَخب

يسْمُو بأمٍ كَرِيمَـةٍ وأَبِ

مكانة الأمهات في الأسرة:

الأم والأمومة والأمــة، مفــردات مترابطــة ومتكاملة؛ فالأم هي التي تصنع الأفراد الذين تتكون منهم الأسرة. والأسرة أســاس المجتمــع والأمــة. والأمومة تختزن أنهاراً من الرحمة والحنان والعطــف والحب والإيثار. وبهذه الخصائص التي خــصها الله بها، فإنها الأقدر على تحمل مسئولية التربية والتنشئة وزرع بذور الإيمان والحب والإخلاص والأخــلاق الفاضلة في قلوب الأبناء (أبناء الأسرة وأبناء المجتمع والأمة) وغرس بذور الانتماء إلى أمتهم في نفوسهم منذ طفولتهم. وبهذه الأعمال والصفات اكتــسبت أعلى مراتب المكانة والإعزاز لدى أبنائها وأســرتها على وجه العموم.

وبما أن جميع أفراد الأسر والمجتمعــات هــم في الأصل أبناء أمهات، فأصبحت الأم تتمتــع بمنزلــة اجتماعية كبيرة حيث قيل: "إن المرأة نصف المجتمع، بل هي كل المجتمع".

لقد عرف الأبناء على مر العصور وكر الدهور مكانة أمهاتهم وما قدمته لهم وهم أجنــة وأطفــال وفتيات. فبادلوهن الحــب والإحــسان والعطــف والحنان والرحمة. ولهذا أوصى النبي(ص) بالأم ثلاثاً وبالأب مرة واحدة. فقال (عليه الــسلام) عنــدما سئل عن حُسنِ الصحبة : "أُمُّكَ ثُمَّ أمك ثم أمك ثم أبوك". وقال (علية السلام): "حُرِّمَ عليكم عقــوق الأمهات وَوَأْدُ البناتِ"

وقد حمل إلينا الشعر العربي منذ القدم افتخــار الأبناء والشعراء بأمهاتهم، وبيان فضلهن وسهرهن على تربيتهم وتنشئتهم كما أردن لهم، حتى اشتهر بَعْضُهنَّ بألقاب تكريمية "كأم الكملة" و"أم البــنين" حتى إن بعض القبائل تــسمت علــى اســم الأم "كباهلة، ووائلة، خندف" وذلك تكريماً لهــذه الأم واعترافاً بفضلها.

ولنستمع إلى هذه الأم تهدهد ولدها الصغير في غمرة الحنان والسعادة:

يَــا حَبَــذَا رِيــحُ الوَلَــدْ
رِيــحَ الخُزَامى في البلدْ
أهكذا كــل ولــــــــدْ
أم لــم يَلِــدْ غَيْــرِى أَحــدْ

إنها حياتها و دنياها، إنها تخصه وحده بهذا القدر من الحب الغامر والإقبال والعطاء بسخاء من معين الحنان والمخزون في قلب الأم لا ينضب. فكيف لا تتمتع هذه الأم بالمكانة والتقدير والتوقير والاحترام من أبنائها ؟ وهي تقدم إليهم كل هذا الحب ...!! وعندما نستمع إلى إنشاد هذه الأم، نلمس الصدق الفطرى في التعبير، حينما تعبر عن شعورها علــى سجيتها تجاه ابنها الذى فارقهــا ورحــل الرحلــة الأبدية، فتقول:

كُنْــتَ السَّوَادَ لمقْلَتــــى
فَعَمَى علَيــكَ النَّاظرُ
مَــنْ شَــاءَ بَعْــدكَ فَلْيَمُــتْ
فَعَلَيْكَ كُنْتُ أُحَــاذرُ

وفي العصر الحديث، نرى "حافظ إبراهيم" يعلى من كرامة الأم ويجعلها مؤسسة تربوية كاملة صانعة الأجيال، يقول:

الأُمُّ مَدْرَسَـــةٌ إذا أَعْـــدَدْتَهَا
أَعْدَدْتَ شَعْبَاً طَيِّبَ الأَعْرَاقِ
مَنْ لــي بتربية النِّسَاءِ فإنها
فــي الشَّرْقِ عِلَّةُ ذلك الإِخْفَاقِ

في البيت الثانى، يتوجه الشاعر إلى من يقومون على تربية النساء من الصغر بالتعريض والتـوبيخ. ويرى أن تخلف المجتمعات الشرقية سببه الأساسـى عدم الاعتناء بالمرأة لأنها المدرسـة الأولى في حيـاة النشء.

وقد حفظت لنا كتب التـراث الكـثير مـن الأمهات اللاتى أدين مهمـة الأمومـة وأعـددن أولادهن إعدادا منهجيا سليما هادفـاً، بمسئولية والتزام باعتبارهم فلذات الأكباد أولا، ثم تأهيـل هؤلاء الأبناء لتحقيق هدف معين ليبنوا مجـدا لهـم شخصيا أو لعائلاهم وأسرهم، وبلـوغ سـيادة أو قيادة. وعندما نستمع لهذه الأم "أم الفضل" زوجة العباس (رضى الله عنهم) تنشد ولدها وهى ترقصه. فنحس إصرارها على تحقيق الهـدف، ونـستجلى مخططاتها ونواياها ولنقل أمالها وتمنياتها التى تسعى إلى تحقيقها عندما تقول لمن تتوقـع مـستقبلا سـياديا لطفلها:

ثَكِلْتُ نَفْسِى وثَكِلْتُ بِكْرِى
إنْ لَمْ يَسُدْ فِهْراً و غَيْرَ فِهْرِ

أما هذه الأم التى تكنى "بأم عمرو" فإنها تروى لنا قصة كفاحها عبر رحلة طويلة قضتها في تربيـة ابنها. ونستدل من شعرها أنها كانت تضع نـصب عينها هدفا محددا لإعداده إعدادا خاصـا وتنميتـه على عادات ومهارات وشمائل خاصـة، تؤهلـه أن يتبوأ منصبا كانت تأمله مما جعلنا نضعها في قمة من يستحق احتلال مكانة ومنزلة عليا وقدرا من التوقير والاحترام والاعتراف بالجميل عند أبنائها، فتقـول شارحة أسلوبها في التربية وما بذلته في سبيل الإعداد الذى سعت إليه:

رَبَّيْتُــهُ دَهْــراً أفتَّــقُهُ
في اليُسْرِ أَغْذُوهُ في العُسْرِ
وَحَمَلْتُــهُ منْ شَـغَفٍ بِــهِ
في الأَرْضِ بـــين تَنَـائِفٍ غُبْــرِ
أَدَعُ المـزارعَ والحـصون بـِهِ
وَأُحِلُّـــهُ في المَهْمَـةِ القَفْـرِ
مازِلْــتُ أُصْعِدُه وأُحدِرُهُ
مـــن قُتْرٍ مُومَاة إلـــى قُتْرِ
حتـــى استوى وَعَــلا الشباب بـه
وَبَـــدا مَنِيرَ الوجــه كالبَــدْرِ

إن أما كهذه تؤدى رسالة الأمومة بهذه الدرجة العالية من الدراية والرعاية والخبرة والمسئولية لتحقيق هدف بناء رجل متكامل ليسود عـشيرته، الجدير بالبر والإحسان والطاعـة في كـل وقـت وزمان، وجديرة بالاحترام والتقدير والتوقير وخلع أسمى الأوسمة عليها.

مكانة الأطفال في الأسرة:

حدد العرب مراحل حياة الإنسان بـالتوالى، وأعطوا لكل مرحلة صفة خاصة بها تغاير الصفة التى قبلها أو التى بعدها. كما أن السنة الشريفة حددت هذه المراحل والصفات، وأعطت لكل مرحلة حكما

خاصا بها وتكليفا دينيا يتناسب معها بشكل دقيق.

فالإنسان يمر على التوالى بالمراحل الآتية: الطفل، والصبى، والغلام والفتى والشاب والشيخ والكهل. فالشيخ فالشيخوخة تدل على صفة الوقار، أما الكهولة فتعنى مرحلة الهرم، أما الشباب فهى مرحلة القوة، والفتوة فهى مرحلة الطيش واللهو، والغلام مرحلة مخالطة الرجال. أما الطفولة والصبا فهما معنيان لمرحلة واحدة تقريبا وإن سبقت مرحلة الطفولة.

فالطفل يدعى صبيا منذ لحظة خروجه من بطن أمه إلى أن يحتلم حيث قال (جل وعلا) في سورة مريم: "فَأَشارَتْ إِلَيهِ قالوا كَيْفَ نُكَلِّمِ مَنْ كَانَ في المَهْدِ صَبِيّاً". وقال تعالى في سورة الحج: "ونُقِرُّ في الأَرْحَامِ وما نَشَاءُ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخرِجُكُمْ طِفْلاً" وأخيراً قال الشاعر الجاهلى "عمرو بن كلثوم".

إذا بلغ الفِطَامُ لَنَا صَبِيٌّ

تَخِرُّ لَهُ الجَبَابِرُ سَاجِدِينَ

لقد حظى الطفل من اهتمامات الكتاب والأدباء على مر العصور، على أساس أنه المستقبل.

والأثير الحبيب عند والديه و أسرته، ويحتاج أكثر من غيره من أفراد الأسرة للعناية والرعاية. فرسموا المناهج ووضعوا الأسس والنظريات لتربية الأطفال، آخذين بعين الاعتبار مستواهم الفكرى وقدراتهم العقلية، وكتبوا عن خصائص الطفل وطبيعته وملاعبته والنزول عند رغباته، وكيفية معاملته وإيصال المعلومات والمعرفة المناسبة لعمره. وتعويده على فضائل الأخلاق الحميدة والعادات السليمة الصحيحة في مختلف المجالات. إذا إن الطفل يكون في هذا العمر صافي الذهن، خاليا من أية معكرات وعقله مستعد للتلقى.

وكان الجاحظ من أبرز الكتاب والأدباء الذين خصصوا بعض كتاباتهم نثرا وشعرا للطفل، وبهذه المقولة يمكن اعتبار الجاحظ أول من خطط لأدب الأطفال، يختلف عن أدب الكبار، لغة وأسلوبا ومعاملة حين طلب النزول إلى مستوى عقل الطفل ولغته والتغاضي عن تصرفاته ونتائج ألعابه. وقد تطابق هذا الكلام مع إنشاد الشاعر الذى يصف تصرف طفل يلهو باللعب مع عصفوزة يمسكها بين يديه ولم يدرك ما يسببه لها من الألم:

كعُصْفُورةٍ في كَفِّ طِفْلٍ يسومها

ورُودَ حِيَاضِ المَوْتِ والطِّفْلُ يَلْعَبُ

وفي عصرنا الحاضر زاد اهتمام الأدباء والكتاب بالطفل، فزخرت المكتبات بالدراسات عن الأطفال وتنوعت الكتب التي تبحث في خصائص الطفل حتى نشأ بما يعرف بأدب الطفل.

ومن الصور التي أوردها الشعراء في العناية بالطفل قول الشاعر"حطان بن المعلى" من قصيدة طويلة يذكر فيها أن من أولى أولوياته رعاية بناته الصغيرات اللاتى أقعدنه عن الضرب في الأرض:

لولا بُنَيَاتٌ كَزُغْبِ القَطَا

حُطِطْنَ من بَعْضٍ إلى بَعْضْ

لكان لِي مُضْطَرَبٌ واسعٌ

في الأرض ذات الطول والعَرْضِ

وشاعر آخر يتذرع بطفولة ابنته التي يستدعيه حبها وواجب رعايتها أن يجوب الأرض في الليالى الحالكة طالبا الرزق من أجلها، حيث تأتى رعاية الأبناء الأطفال من الأولويات والاهتمامات للأبوين، وتعبيرا عن مدى حبهم لهم أكثر من أنفسهم، خاصة إن كنا بنات صغيرات. لنستمع إليه كيف يعبر عن هذا الموقف الأبوى في إعزاز الابن بمكانته ومنزلته بقوله:

لولا اميْمَّةُ لم اَجْزَعْ من العَدَمِ
ولم اجُبْ في اللَّيَالِى حَنُوسَ الظلمِ
وَزَادَنى رَغْبَةً في العَيْشِ مَعْرِفَتِى
ذُلَّ اليَتِيمَةِ يَجفُوها ذوو الرَّحَمِ

وهذا الشاعر الفارس "ابو خالد القنانى" من الخوارج، قعد ولم ينفر مع زملائه خشية على بناته الصغيرات. ويبدو أنهن لازلن طفلات، حيث يشير إليهن بكلمة "إنهُنَّ من الضعاف" فيقول معتذرا "لقطرى بن الفجاءة" حين عاتبه على قعوده عن الجهاد، وأصبح من القعدة حيث يعاتب الخارجى بذلك. فرد عليه أنه لولا خشيته على بناته وصغرهن وطفولتهن، فلن يقعد عن زملائه:

لقد زَادَ الحَيَاةَ إلى حُبّاً
بَنَاتى إنهُنَّ مِن الضِّعَاف
أُحَاذِرُ أنْ يرين الفقر بعدى
وأنْ يشْرَبْنَ زنقا بَعْدَ صَافِ
وأنْ يَعْرَيْنَ إن كُسِىَ الجوارى
فَتَنْبُو العينُ عن كَرَمٍ عِجَافِ

لقد أعتاد الصحابى الجليل" عبد الله بن عمر "أن يصحب ابنه الطفل "سالم" معه إلى مجالسه فلامه بعض أصحابه، فقال منشدا معبرا عن منزلة هذا الطفل في قلبه كأجمل تعبير لأنه أوجز المعنى الكثير في إيجاز قليل:

يَلُومُونَنِى في سالمٍ وَأَلُومُهُمْ
وَجَلْدَةٌ بين العين والأنف سالِمُ

أما الشاعر "الحطيئة" فلم يجد سبيلا إلى قلب أمير المؤمنين وخليفتهم "عمر بن الخطاب" يستثير عاطفته ليعفو عنه إلا عن طريق الحديث عن الأطفال، يستعطفه بهم ويشكو إليه ما آل إليه حالهم من بعده وهو في سجن الخليفة العادل الذى ألقاه فيه بسبب أنه ينال من أعراض المسلمين ويشتمهم في أشعاره، فأرسل إليه قصيدة أثارت عاطفة أمير المؤمنين الصلب الحازم، حين لم تنفع الوسطات. إلا هذه الأبيات البسيطة في ألفاظها المؤثرة في معانيها المثيرة للعاطفة والشفقة والحنو، ومما قاله "الحطيئة" يخاطب مشاعر الخليفة قوله عن أطفاله:

مَاذَا تَقُولُ لأَفْرَاخ بِذى مَرخٍ
زُغْبُ الحَوَاصِلِ لا مَاءٌ ولا شَجَرُ
اَلْقَيْتَ كَاسِبُهمْ في قَعْرِ مَظْلَمَةٍ
فاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلامُ الله ياعُمُرُ
وَأَمْنُنْ على صِبْيَةٍ في الرمل مَسْكَنُهم
بين الأَبَاطحِ تَغْشَاهم بِهَا القُرَرُ
أَهْلِى فِدَاؤُكَ كم بينى وبَيْنَهم
مِنْ عَرضِ دَأوِيةٍ يَعْمَى بِهَا الخَبَرُ

وهكذا استطاع "الحطيئة" الأب ورب الأسرة

ما لم يستطعه "الحطيئة" الشاعر حين تحدث عن أطفاله وهم بعض أسرته وهو الذى لم يسلم أحد من العرب من شر لسانه، فقد قيل إنه هجا أمه وأباه ونفسه لكنه عند أطفاله جاء بأرق الأشعار وهو يودعها أحاسيسه ومشاعره التي بكى من تأثيرها "عمر بن الخطاب". وهو يتصور ويتخيل صورهم التي رسمها "الحطيئة" فما كان منه إلا أن عفا عنه إكراما لأطفاله؛ لأن رعايتهم واجبة على الأب ومن مسؤليته أمام الله–سبحانه وتعالى– بعد أن أخذ عليه العهود بأن لا يهجو أحدا مرة أخرى.

▫ مكانة الأبناء في الأسرة :

ينشد الشاعر "جرير" وهو يرقص ابنه مرتجزا:

يَشْفي الصُّدَاعَ رِيحُهُ وَشَمُّهُ
كَأنَّ رِيحَ المِسْكِ مُسْتَحمُّهُ
وَيُذْهِبُ الغَلِيلَ عَنّي ضَمُّهُ
يَقْضِي الأمورَ وَهْو سَامٍ هَمُّهُ
فَآلُهُ آلِي وَسَمّي سَمُّهُ

والآباء يبذلون من عواطفهم ومن أنفسهم وأرواحهم وأموالهم، الأم تحمل وترضع وترعى، والأب يسعى ويبذل ويواجه الصعاب والمخاطر طلبا للرزق. ثم الأب يؤثر على نفسه، ويقدم لأبنائه كل ما لديه من معنويات وعواطف من أجل أبنائه.

وبهذا المعنى يبثنا الشاعر "أمية بن أبي الصلت" خواطره ومشاعره تجاه ولده، فإذا نظرنا فيها نجدها نفسها خواطر ومشاعر كل الآباء في كل زمان ومكان. وهو في هذه الأبيات في القصيدة التي نظمها في عتاب ولده الذى رأى منه عقوقا وجفاء نراه يخاطبه بأسى ظاهر:

فَلَمّا بَلَغْتَ السِّنَّ والغَايَةَ التي
إليها مدى ما كُنْتُ فيكَ أؤَمِّلُ
جَعَلْتَ جَزَائِي مِنْكَ صداً وغِلْظَةً
كَأنَّكَ أنْتَ المُنعِمُ المَتفضِّلُ
فَلَيْتَكَ إذا لم ترعَ حَقَّ أُبُوّتِى
فَعَلْتَ كما الجَارُ المُجَاوِرُ يَفْعَلُ

ويقول "ابن الرومى":

وَأولادُنَا مُثْلُ الجَوَارِحَ أيُّها
فَقَدْنَاهُ كانَ الفَاجع البَيِّنَ الفَقْدِ
هَل العَيْنُ بَعْدَ السَّمْع تَكْفِي مَكَانَهُ
أم السَّمْعُ بَعْدَ العين كما تَهْدِى

ويقول "عبد ربه" راثيا ابنه وكأنه يعزف لحنا على قيثارة حزينة:

واكبداً قد قُطِّعَتْ كبدى
وَحَرَّقَتْهَا لواعجُ الكَمَدِ
ما مات حَيٌ لِمَيّتٍ أسَفاً
أعذر من والد على ولدِ

ويستمر في إنشاده على نفس الوتيرة، فيقول:

ولى كبدٌ مَشْطُورَةُ بيد الأَسَى
فَتَحْتَ الثرى شَطْرُ وفوق الثرى شَطْرُ
أَفَرْخ جِنَانِ الخُلْد طِرْتَ بِمُهْجَتِي
وليس سوى قَعْرِ الضَّرِيح له وَكْرُ

أما الشاعر " حطان بن المعلى " فينشد باسم جميع الآباء:

وَإنَّمَا أولادُنَا بَيْنَنَا
أكْبَادُنَا تَمْشِي على الأرضِ

لو هَبَّتَ الريحُ على بعضهم

لامتنعت عَيْنى عن الغَمْضِ

ويقول "ابن الرومى" في رثاء ابنه "محمد":

أرَيْحانَـةَ العَيْنَـيْنِ والأَنْـفِ و الحشا

ألا ليت شِعْرى هل تَغَيَرتَ عن عَهْـدى

سأَسْقِيكَ مَاءَ العَيْنَيْنِ مَا أَسْعَدَتْ بِه

وإن كانت السُّقْيَا من الدمع لا تُجْـدِى

مكانة البنات في الأسرة:

للشاعر موقفه في التعبير عن مشاعر ابنته نحوه، يقول "الأعشى" في لحظة وداع حزين:

تقول بُنَيَّتِـى وقد قَرَّبْـتُ مُرْتَحِلاً

يارَبِّ جَنِّبْ أبِـى الأوصَابَ وْالوَجَعَا

واستَشْفَعَتْ من سَرَاةِ القَوْمِ ذا شرفٍ

أَهْدَتْ له من بعيد نظرةَ جَزَعاً

ويتذكر "الأعشى" في رحلته توسلات ابنتـه ويرسم في مخيلته صورة لليتيم الذى توقعه من بعده فينشد :

تقولُ ابْنَتِى حين الرحيلِ

أرانا سواءً و منْ قد يَتِمْ

أَبَانا لَقَدْ رِمْتَ من عندنا

إنَّـا بخَيْـرٍ إذا لم تَرِمْ

ويـا أَبَتـا لا تَزَالُ عنـْـدَنَا

فإنَّا نَخَافُ بأن نُختَرَمْ

أرِنَـا لا أَضْـمرَتْك الـبِلادُ

نُجفَي وتُقْطَـعُ منا الرَّحَمْ

لقد ظلت توسلات ابنته عالقة في ذكرياته، إذ من الصعب نسيانها ونسيان تلك الصورة التي تحمل أسمى معانى الرحمة. وها نحن نراه يسترجع المـشهد ويتذكر ما كانت قالته ابنته في حوارهما كى تثنيـه عن السفر، فيتذكر حالها ويتحسر علـى فراقهـا ولاشك أن دموع البنت تؤلم الأب وتحزفي نفـسه وقلبه عندما لا يستطع إجابة طلبها وتفادى دموعها التي تنحدر على خديها فتقطع كبده .

وقد تعرض "مالك بن الريب التميمى" لموقف مماثل أمام ابنته الباكية، فيبدو أنه مـضطر للـسفر والابتعاد مثل الأعشى" لذلك لم يستجب لتوسلاها رغم تأثره هذا المشهد، فأنشد بقلب مفجوع:

وَلَقَـد قُلْـتُ لابْنَتِـى وهِـى تَبْكِـى

بِدَخيلِ الهُمُومِ قَلْبـاً كئيبـاً

وهى تَـذْرِى من الدمُوعِ على الخدين

من لوعةِ الفِراقِ غُرُوبَا

اسكتى قد حَزَزْتِ بالدمع قلبى

طالما حَزَّ دَمْعكُنَّ القلوبا

فعسى الله أن يـدافعَ عنى

رَيْـبَ ما تحذرين حتى أَأبـا

وبعد، فإن هذا العرض لم يقـدم كـل مـا في الكتاب من مادة علمية عن الأسرة العربية في الشعر العربى ولكن حسبه أن قدم قطفاً منه ليلقى الضوء على اهتمام الشعر العربى بمكانة الأسـرة وأنهـا لم تفارق وجدان الشاعر العربى على طول تاريخه.